يونس

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم العشيري

فرغت الأم العجوز من صلاة العشاء وطوت « السجادة » فى لأى ، ثم سارت صوب نافذة صغيرة بالغرفة ففتحتها ووقفت ترقب منها فى أمل وشوق وخوف، الطريق الطويل المتشح بالسواد الذى بدا أمام عينيها ، وهب على وجهها هواء الليل البارد فسرت فى جسدها الضاوى قشعريرة شديدة ؛ ورغم استمرار ذلك الهواء البارد فى الهبوب على وجهها فانها لم تتحول عن النافذة ، بل ظلت واقفة كما هى ترقب الطريق فى أمل وشوق وخوف ، وكلما تناهى إلى أذنيها صوت أقدام تقترب من الدار التى تسكنها تزايدت دقات قلبها وهتفت فى صوت خافت ملؤه الفرح والأمل والتساؤل:

— ترى هل قدم ابنى يونس ؟ ...

وترى وجه صاحب الأقدام التى سمعتها فلا تجده ابنها فيمتلئ قلبها كآبة وبؤساً وترفع رأسها إلى السماء تسأل نجومها فى ضراعة :

— هل يعود ابنى الليلة ؟ ؟

ولكن النجوم لا تجيب . فتعود ثانية لترقب الطريق فى أمل وشوق وخوف ...

ويشرد بصرها قليلا وهى تستعيد فى ذهنها وجه ابنها يونس . ويبدو الوجه ومن ورائه يبدو ماضى ابنها ، الماضى الذى أورثها السهاد والآلام والمهانة ، وتفيق فجأة لتسأل ربها :

— لم يا رب جعلت ابنى كذلك ؟

وتهز رأسها فى أسى وحسرة وتجيش الدموع فى عينيها . ثم تعود للمرة الثالثة لترقب الطريق فى أمل وشوق وخوف منتظرة عودة ابنها ...

كان ابنها (يونس) هذا فى سن الشباب جبل على الشر منذ نعومة أظافره ، فهو لا يكف عن التسلو على منازل من يعرفهم ومن لا يعرفهم ليسرق أثمن ما فيها . وهو لا يصادق غير اللصوص والأشرار . وهو يعامل أمه دائماً بغلظة المجرم الذى لا قلب له . وأمه لا يسعها إلا أن تبتهل إلى الله فى صلواتها أن يقوم أخلاقه ويهديه سواء السبيل ... ولكن هيهات ...

ومنذ ستة أشهر سطا على دار أحد أعيان القرية التى يعيش فيها يريد سرقة ما بها فقبض عليه وسيق إلى العمدة ، ومن العمدة إلى المحكمة ، ومن المحكمة إلى السجن ليقضى فيه ستة أشهر جزاء له على ما اقترف !

وها هى ذى الستة الأشهر قد مضت وسيعود الليلة من السجن . وها هى ذى أمه تنتظر عودته فى أمل وشوق وخوف ...

وانتصف الليل ، والأم لما تزل واقفة تطل من النافذة على الطريق . وكان الصمت سائداً فلا حركة ولا نأمة . وفجأة دوى فى سكون الليل المدلهم صوت أقدام آتية نحو الدار ، أقدام ثقيلة كأقدام يونس

ابنها . وخفق قلبها وحدقت فى الطريق ببصر كله انتباه واهتمام . وبدا أمامها جسد رجل، وأفلتت من فيها صرخة كلها فرح وطرب ، فقد كان ابنها صاحب ذلك الجسد

وتركت النافذة وذهبت مسرعة لتفتح لابنها باب الدار . ودخل يونس من الباب فصاحت فى سعادة وهى تفتح له ذراعيها :

— يونس . ابنى . حبيبى !

ولكنه سار فى طريقه دون أن يلتفت إليها فلحقت به وهى تصيح حانقة :

— ما هكذا يقابل الابن أمه بعد غيبة ستة أشهر أيها الابن الناكر للجميل ..

فالتفت إليها قائلاً فى خشونة :

— ما هذا وقت عتاب . إنى متعب وجائع .

وأشفقت عليه فلم تستمر فى عتابها له مع قوة رغبتها فى ذلك . وأخذت بيده بعد أن قبلت خده نحو غرفة صغيرة مضاءة بالنار وهى تقول :

— هنا دجاجة « محمرة »(وملوخية) أعددتهما لك . أدخل وسوف أذهب لأحضر لك الخبز ..

ودخل الغرفة . وذهبت لتحضر له الخبز ، وسرعان ما عادت به إليه . وجلس يلتهم طعامه وجلست بالقرب منه تسأله :

— وكيف وجدت الحياة فى السجن ؟

فرد عليها فى خشونته التى لا تفارقه :

— جحيم . ولكنه أفضل من الحياة هنا على كل حال .

— وهل الحياة هنا لا تعجبك أيها الابن المذنب أتنكر نعمة ربك ؟ .

فصرخ فى غضب وفمه يغص بالطعام ...

— إنى جئت هنا لآكل يا امرأة ، لا لأسمع هذا الكلام الذي هو كالسم . فاذا لم تصمتى فانى سأذهب من هنا . وأدع لك طعامك ...

ووضعت الأم خدها على يدها وصمتت . وراح يونس يلتهم ما بقى من طعامه بنهم . فلما أتى على ما أمامه من الطعام شرب كوباً كبيراً من الماء ثم تجشأ ومسح فمه فى كمه . ونهض فبارح الغرفة ...

وهزت الأم رأسها فى حزن ، وضربت كفاً بكف ، وقالت بعد أن تنهدت :

— يا لسوء حظى مع هذا الابن ...

وقامت فجمعت بقايا طعام ابنها وألقتها لقطة نحيلة كانت نائمة فى ركن بالغرفة . ثم ذهبت فى أثر ابنها ...

ووجدته مضطجعاً على فراش نومه وقد غطى وجهه بيديه فوقفت تنظر إليه وهى تبتهل إلى الله فى سرها أن يرشده إلى طريق الصواب . ثم ذهبت بعد هنيهة إلى فراش آخر كان بالقرب من فراش ابنها فألقت بجسدها عليه فى إعياء ، وحاولت أن تنام

* * *

وفى اليوم التالى عاد يونس إلى أصدقائه اللصوص ، فتلقوه فى ترحاب واشتياق . وراح من جديد يدبر جرائم السطو على المنازل لسرقة ما بها ...

كانت هذه طبيعة فيه ، وما نفعت دعوات أمه ولا نفع السجن فى تخليصه من طبيعته هذه ...

وفى ذلك اليوم أيضاً عادت أمه إلى الابتهال إلى الله فى صلواتها أن يذهب بابنها عن الطريق الذى يسير فيه إلى الطريق السوى . ولكن هيهات ...

وفى اليوم الذى أعقب ذلك اليوم ، دخل يونس على أمه وهو يغنى بعض (المواويل) الريفية والسرور يشيع فى وجهه . وعلى غير عادته راح يحادثها بلطف

ورقة ، فعجبت لذلك وسألته :

— لم أرك على هذا السرور قبل الآن ، فما السبب يا ترى ؟

فمال بفمه على أذنها يهمس فيها :

— لقد سرقت ليلة أمس مالاً كثيراً . . .

ولم يدر بما فعلت أحد . . .

فصاحت فيه غاضبة :

— سرقت .. سرقت أيها الابن المذنب المخطىء .

فقال لها وهو يهدىء من غضبها :

— لا ترفعي صوتك هكذا . يقولون إن للجدران آذاناً مثلنا . . .

فلم تسمع كلامه واستمرت فى صياحها :

— إنى لا أطيق أعمالك هذه . . . فمتى تفكر فى . . فى أمك المجوز يا يونس . . يجب أن تعرف أنى فى حاجة إلى الراحة . . . أجل إلى الراحة يا . . .

فلم يقف ليسمع من كلام أمه أكثر مما سمع ، إذ تسلل من أمامها مسرعاً وهو يقول :

— إنى ذاهب . فما أحب أن يتسمم الجو الجميل الذى أعيش الساعة فيه . . .

وسمعت الأم بعد قليل صوت باب الدار وهو يفتح ثم وهو يغلق فعرفت أن ابنها قد بارح المنزل . .

وارتمت على أحد المقاعد وهى تحبس دموعها التى أوشكت أن تتحدر . . .

* * *

وتصرمت خمسة أشهر لم تتغير فيها حياة يونس وأمه ، فهو لا يكف عن السطو على المنازل وعن مصاحبة اللصوص والأشرار ، وهى لا تكف عن وعظه وإرشاده إلى طريق الخير وعن التضرع إلى الله فى صلواتها أن يساعدها على ذلك . ثم أتى اليوم الذى عرف فيه يونس الحب ، فابتدأت حياته تتغير وتتبدل ، وبحكم صلة حياة أمه بحياته فقد تغيرت هى أيضاً وتبدلت

كان عجيباً أن يعرف يونس الحب . وهو الرجل الشرير الذى لا قلب له . ولكن من الذي استطاع أن ينظر فى عينى « عالية » دون أن يصاب بداء الحب ! أو من استطاع أن يرى بسماتها دون أن يحس بروحه قد امتزجت بروحها ؟

وعالية هذه فتاة قروية ، فى جسدها استقامة فاتنة ، وفى عينيها دعج مغر ، وفى بسمتها سحر فتاك ، وفى ضحكتها الناعمة وكلامها الرقيق حلاوة الشهد . رآها يونس ذات يوم فى السوق الصغيرة التى تقام بالقرية كل أسبوع ، فلم يدر لم وقف كالمشدوه يحملق فى وجهها وهو الذى ما كان يستوقفه جمال فتاة من قبل مهما كان هذا الجمال ؟

وفطنت عالية إليه فرمقته بنظرة أحس وهو يتلقاها بعاطفة جديدة تنشأ فى قلبه ، وأفاق ليجد نفسه قد أحب ، قد أحب عالية

وبرغم ضخامة جسده وعظم قوته ، فانه عند ما رجع إلى منزله فى ذلك اليوم كان يشعر بضعف كبير أمام تلك العاطفة الجديدة التى طرقت قلبه

وتلقته أمه المجوز على الباب ، فأدهشها أن تجده ساهما مطرق الرأس

فقالت له فى حنان : ما خطبك ؟

فهتف بلا وعى وبغير تريث : الحب . . . الحب يا أمى . . .

وكانت هذه هى المرة الأولى منذ زمان طويل التى يدعوها فيها بـ « يا أمى » . فقد تعودت أن تسمعه دائماً يدعوها بـ « يا امرأة » . وسرت فى

أعماق نفسها لذلك . وودت لو تطلب منه أن يعيد على مسمعيها مرة أخرى كلمة « يا أمى » هذه . ولكن كان هناك شيء أهم من ذلك تريد أن تستوضح أمره من ابنها ، ألا وهو ذلك «الحب» الذى نطق به . فقالت له : ماذا تقصد ؟

وكأنما هيأ له عقله أنه قد باح بشيء لم يكن من الواجب أن يبوح به ، فقد سار فى طريقه وهو يغمغم : لا شيء ... لا شيء ...

ولكن أمه لم تكن من الجهل بحيث تصدقه . فذهبت تحاول اقتناص سره من صدره بمختلف الحيل والأساليب . ولكنه صمت وزاد تمادياً فى صمته فترك الكثير من أسئلة ألقتها عليه، محاولة أن تستدرجه إلى الذى تريد، بلا جواب ..

وعند ما آوى إلى فراشه كانت عينا عالية تملآن غرفته . وعبثاً حاول أن يبعدهما عنه ...

وانتصف الليل والكرى لم يطرق له جفناً . فترك فراشه وبارح غرفة نومه إلى غرفة أخرى راح يشغل نفسه فيها ببعض الأعمال حتى لا يفكر فى عالية ... ولكن بلا طائل ... ولحقت به أمه وقد أحست بأنه ليس فى فراش نومه ، فوجدته على حالته هذه

سألته : ألم تنم ؟

قال : لا ..

فجلست بجواره وربتت بيدها على ظهره قائلة :

— لِم ؟

— انتابنى الأرق .

فسألته وهى ترفع إليه بصرها .

— ولِم انتابك الأرق . ؟

— لأنى ... لأنى ...

ولم يتم كلامه . فصاحت به تحضه على إتمام ما يريد أن يقوله

— لأنك تحب . أليس كذلك ؟

فلم يجب . ولكنه نهض بسرعة وعاد إلى غرفة نومه ثم ألقى بجسده على فراشه وغطى وجهه بذراعيه وفى أثره عادت الأم المسكينة ، وجلست بجوار فراشه ثم وضعت يدها على رأسه وتمتمت تخاطبه :

— لم تخبىء عنى ما فى قلبك ياحبيبي ؟ ألست أمك ...؟!

فلم تفز برد ...

* * *

وفى صباح اليوم التالى اجتمع يونس بأصحابه اللصوص ، وعلى غير عهدهم به وجدوه راغباً عن التفكير فى جرائم السرقة ، كثير الاطراق ، خفيض الصوت عندما يتكلم . فحسبوه مريضاً ولكنهم ما دروا أنه قد أحب ...

وقبل أن ينفض اجتماعهم راح يونس يصف لهم فتاته عالية ويسأل هل يعرفها أحدهم . وكان وصفه لها دقيقاً جديداً حتى أن ثلاثة من أصحابه هؤلاء أجابوه سريعاً بأنهم يعرفون الفتاة التى يصفها، واقترب منه أحد الثلاثة فأخبره باسمها واسم والدها والمكان الذى به منزلها . ثم رفع إليه بصره يسأله فى ابتسام :

— هل وقعت ؟ ...

ولكن النظرة القاسية التى صوبها يونس إليه جعلته يصمت ويطرق برأسه إلى الأرض . ثم انفرط عقد اجتماعهم

وبعد هنيهة كان يونس فى طريقه إلى المنزل الذى تقيم فيه عالية . وفجأة وجد نفسه أمام عالية .

ووقف فى هذه المرة أيضاً يحملق فى وجهها . وابتسمت وقد عرفته ؛ وحجبت فمها بطرف خمارها فى استحياء والبسمة لا تزال عليه . ثم سارت فى طريقها ...

وود لو يقفها ليبوح لها بحبه ولكنه لم يستطع وما استطاع إلا تشييعها ببصره إلى حيث اختفت ثم عاد إلى منزله فى خطى وئيدة ...

وحدث فى ذلك اليوم ما حدث بالأمس ...

* * *

وثقت الأم العجوز أن ابنها قد أحب . ولكن من هى الفتاة التى أحبها ... ذلك ما راحت تحاول بطريقتها الخاصة ، وبث العيون وراء ابنها أن تعرفه وقد عرفته ...

وفى أحد الأمسى أطلعت الأم ابنها على ما عرفته وسألته :

— هل تنكر شيئاً مما ذكرت ... ؟

فأجاب : لا ...

قالت : وعلام نويت ؟

قال : سأطلب يد عالية من والدها غداً ...

وغمرت الأم سعادة . عظيمة وكيف لا تسر وابنها يعزم على الزواج . وعادت تسأله فى خوف :

— ولكن هل تظن أن والدها يقبل طلبك ؟

قال : سوف أبذل كل ما فى وسعى حتى يقبله ...

قالت : وإذا لم يقبله ... ؟

فأطرق برأسه ، وقد أدرك أمراً محيراً . أجل إذا لم يوافق والد عالية على أن يزوجه ابنته فماذا يفعل ؟ . . . إن والدها يعرف أنه لص فربما لا يقبل طلبه ... ؟

ورفع رأسه فى يأس وحيرة وقال لأمه التى كانت تنظر إليه فى إشفاق :

— غداً بعد أن أرى ما سيتم فى ذلك الموضوع أجيب على سؤالك ...

* * *

وذهب يونس فى الغد ليطلب يد فتاته من والدها ... وتمنت له أمه من أعماق قلبها التوفيق فيما هو ذاهب إليه . فقد كانت متأكدة أنه لو تزوج فستبتعد به الحياة الزوجية عن حياة الاجرام ، ويصبح يونس كما أرادته وكما ستظل تريده ابناً صالحاً لا يزعجها بشىء ... ولكن . ولكن وقع ما هجس بصدر الأم وابنها فلم يقبل والد عالية أن يزوجه من ابنته ، وزاد على ذلك أن أخبره أنها مخطوبة إلى أحد أقربائها ...

وخرج يونس من دار والد حبيبته وقد أظلمت الحياة فى عينيه . ماذا يفعل الآن ؟

وفى طريقه أبصر بعالية ، ووقف يفكر ... يجب أن يقابلها ... يجب أن يودعها . يجب أن يقول لها إنه لن يعيش طويلاً وقد فقدها ...

وذهب إليها ، ولكن عالية رأته قبل أن يقترب منها ، فابتعدت عنه . كانت قد عرفت بالأمس أن ذلك الشاب الطويل القامة ، الواسع الصدر ، المفعم قوة وفتوة ، الذى عرفته فى الأيام الأخيرة ليس إلا يونس اللص !

وصرخ يونس وهو يراها تبتعد عنه :

— عالية ...

فالتفتت إليه خائفة ، وحدجته بنظرة هائلة كلها ازدراء واحتقار ، ثم استمرت فى سيرها مرفوعة الرأس لا تلتفت إليه !

وأحس كأن سلاحاً حاداً أشبه ما يكون بالسكين قد أغمد فى صميم قلبه ... ! وفرت دمعة من عينه وسقطت على خده ، فمسحها بأصبعه الخشن وعاد ليتابع سيره وفى أعماقه شىء يئن ...

* * *

وبعد أيام أربعة سرت فى مجالس رجال القرية الذين لهم أعداء يريدون التخلص منهم إشاعة مضمونها أن « يونس » مستعد لتخليص من له عدو من عدوه مقابل عشرة جنيهات . أجل عشرة فحسب ... ولو كلفته مهمته هذه حياته ...

واتصل أحد هؤلاء الرجال الذين لهم أعداء يريدون التخلص منهم بيونس، وبعد أن تأكد من صدق الاشاعة التى وصلته اتفق معه على أن يخلصه من عدوه وأعطاه العشرة الجنيهات التى يريدها

كل هذا حدث وأم يونس لا تدرى . ولو كانت تدرى لباعت حياتها لتنقذ ابنها قبل أن يبيع هو حياته بتلك الجنيهات العشرة !

وذهب يونس بعد أن ملأ بطنه خمراً ليقوم بمهمته غير خائف ولا وجل، فما عادت حياته بذات قيمة لديه بعد أن فشل فى حبه . ولم يفكر فى أمه المسكينة وهو مندفع فى طريقه المظلم الذى لا يعرف إلى أين يوصله ، وإن كان يعرف أنه لن يوصله إلى نهاية حسنة ، اللهم إلا أنه أودع عند أحد أصدقائه بضعة جنيهات من الجنيهات العشرة وأوصاه أن يعطيها لأمه إذا قبض عليه لتعيش منها ...

* * *

وفى صباح اليوم التالى كانت الأم واقفة أمام منزلها تسأل المارة عن يونس ابنها إذ أنه لم يعد إلى المنزل ليلة أمس ، عند ما تقدم أحد أقربائها ليخبرها أنه عائد لتوه من عند عمدة القرية وأن ابنها مقبوض عليه هناك بتهمة قتل رجل من القرية ...

وتلقت الأم ذلك النبأ ذاهلة . ثم صرخت فى صوت عال :

— ابنى يونس قبض عليه بتهمة قتل رجل ..؟ ابنى يونس ... حبيبى يونس ...

وذهبت إلى دار العمدة لتتحقق الأمر . فعادت والجنون أقرب إليها من حبل الوريد . إن ابنها قد قتل حقاً أحد رجال القرية والعمدة يقول لها إنه قد يحكم عليه بالاعدام شنقاً ...

وتمر الأيام والشيطان يضحك على الضحيتين الرخيصتين : الأم وابنها .

* * *

... فى صباح يوم دخلت إحدى نساء القرية على تلك الأم المسكينة لتخبرها أن ابنها قد حكم عليه بالاعدام شنقاً ، وأن ذلك الحكم سينفذ فيه فى الغد . فوجدتها نائمة على غير عادتها فى الأيام الأخيرة . وكانت تحلم ، إذ سمعتها تقول :

— هل برئت يابنى ؟ هل أطلقوا سراحك ياحبيبى وعدت إلى أمك العجوز ؟ حسن ، تعال إلى صدرى أيها الابن الشقى .. تعال إلى صدر أمك التى أوشكت أن تجن عندما علمت بأنك لا تعود إليها . تعال ياحبيبى . تعال ...

وضغطت الأم النائمة بذراعيها على صدرها وكأنها تضم إليه ابنها حقاً . وعادت المرأة التى أتت لتخبرها أن ابنها حكم عليه بالاعدام شنقاً من حيث أتت . وعلى خديها بضع قطرات من الدموع حاولت أن تحبسها فى عينيها فلم تستطع !

عبد الحليم محمود العشيرى